أَثَرُ الإيمَانِ فِي نُزُولِ الرَّحْمَةِ

إنَّ المتفكِّرَ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ يتبدَّى له من خلالِ جولتِه التأمُّليةِ أنّ اللهَ ثبَّتَ أشياءَ كثيرةً ، منها النواميسُ والقوانينُ التي تحكمُ حركةَ الحياةِ ، وثبَّت خصائصَ الأشياءِ التي نتعاملُ معها ، وثبَّت دورةَ الأفلاكِ المحيطةِ بنا ، وكلُّ ذلك ترسيخاً للنظامِ الكونيِّ ، وتحقيقاً لتسخيرِ الأشياءِ لنا ، كي ننتفعَ بها في حياتِنا الدنيا ، ولكي ترشدَنا إلى ربِّنا ، فنعرفَه ، ونطيعَه ، ونسعدَ بقرْبِه في الدنيا والآخرةِ ، وحَرَّك أشياءَ قليلةً ، منها الصحةُ والرزقُ ، لتكونَ وسائلَ لتربيتِنا ، والأخذِ بيَدِنا إلى اللهِ ، وإلى جَنَّتِه ، فالإنسانُ حريصٌ على سلامتِه ، وعلى رزقِه .

ومن الثابتِ أنّ التقتير الإلهيَّ هو تقتير تأديبٍ وتربيةٍ ، وليس تقتير عجزٍ وضن ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] ، وقال سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] ، ثم إنَّ اللهَ جل وعلا لا يسوقُ لعباده شِدَّةً إلا بما كسبتْ أيديهم ، ويعفو عن كثيرٍ ، قال عز وجل :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وقال عزَّ مِن قائلٍ :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

[الشورى : ٣٠]

روى ابن ماجه والبزّارُ والبيهقيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : « أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ باللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ؛ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِم الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ »(١) .

ولكنْ ما العملُ بعد نزولِ المصائبِ ؟! لقد أجابَ القرآنُ الكريمُ عن هذا السؤالِ ، قال تعالى :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[السجدة : ٢١]

---

(١) حديث حسن رواه ابن ماجه(٤٠١٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان(٣٣١٥) وغيرهما .

إنّ الهدفَ الأولَ والأوحدَ من سَوْقِ العذابِ في الدنيا هو رُجُوعُ العبادِ إلى الله ، والشيءُ الأولُ والأوحدُ الذي يصرفُ البلاءَ عن الإنسان في الحياةِ الدنيا هو طاعةُ الله ، وطاعةُ رسوله ﷺ مخلصاً فيها ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

قال علماء التفسير : « ما دامت سُنَّة النبيِّ ﷺ القوليةُ والعمليةُ والتقريريةُ مطبَّقةً في حياتِهم ، وفي بيوتِهم ، وفي علاقاتِهم الأسريةِ ، ومطبَّقةً في أعمالِهم ، وفي كسب أرزاقِهم ، مطبَّقةً في حِلِّهم وترحالِهم ، وفي أفراحِهم وأحزانِهم ، مطبَّقةً في مَنشَطِهم ومَكرَهِهم ، في يُسْرِهم وعُسْرِهم ؛ فهُمْ في مأمَنٍ مِن عذاب الله » ؛ أما لو حيَّرَتْهُم الشبهاتُ ، وغلبتْهم الشهواتُ ، فزلَّتْ أقدامُهم ، وانحرفتْ مسيرتُهم ، فأمامَهم فرصةٌ ثمينةٌ مَنَحَها اللهُ لهم ، وبها يأمنون عذابَ اللهِ مرةً أخرى .

إنها الاستغفار ، قال الغفور الرحيم :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

لقد أَطْمَعَهُمْ ربُّهم ـ إنْ هم استغفروهُ ـ في الرزقِ الوفيرِ الميسورِ ، مِن أوّلِ أسبابِه التي يعرفونها ، ويرجُونها ، وهو المطرُ الغزيرُ ، الذي تسيلُ به الأنهارُ ، وتتفجرُ به الينابيعُ ، والذي تنبتُ به الزروعُ ، كما وَعَدَهُمْ برزقٍ آخرَ من الذُّريةِ التي يحبُّونها ـ وهي البنون ـ والأموالِ التي يطلبونَها ويحرصون عليها :

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝ ﴾ [نوح : ١١ـ١٢] .

وقدْ رَبَطَ اللهُ جل جلالُه بينَ الاستغفارِ وهذهِ الأرزاقِ الوفيرةِ : وفي القرآن مواضعُ متكرِّرةٌ فيها هذا الارتباطُ بين صلاحِ القلوبِ ، واستقامتِها على هدى الله ، وبينَ تيسيرِ الأرزاقِ ، وعمومِ الرخاءِ .

وجاء في موضع ثانٍ(١) :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

[الجن : ١٦ـ١٧]

وجاء في موضع ثالث :

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود : ٣] .

وفي موضع رابع قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وهذه القاعدةُ التي يؤكِّدها القرآنُ في مواضعَ متفرقةٍ قاعدةٌ تقومُ أسبابُها على وعْدٍ مِنَ الله ، ومِن سُنَنِ الحياة ؛ كما أنَّ الواقعَ العمليَّ يشهدُ بتحقيقِها على مَدَارِ القرونِ ، والحديثُ في هذه القاعدةِ عن الأمم لا عن الأفراد ، وما مِن أمّةٍ قام فيها شرعُ الله ، واتجهت اتِّجاهاً حقيقيًّا إليه ؛

(١) الموضع الأول قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ. . . . . ﴾ ، الآية .

عبادةً ، واستقامةً ، وعملاً صالحاً ، واستغفاراً ، وخشيةً . . وما من أمّةٍ اتَّقت اللهَ ، وعبدتْهُ ، وأقامت شريعتَه ، فحقَّقت العدلَ ، والأمنَ للناس جميعاً ، إلا فاضتْ فيها الخيراتُ ، ومَكَّنَ اللهُ لها في الأرضِ ، واستخلَفَهَا على خلْقِه ؛ قيادةً وهدايةً ، وبدّل خوفَها أمناً ، قال تعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

ولقد نشهدُ في بعضِ الفتراتِ أُمَماً لا تَتَّقي اللهَ ، ولا تقيمُ شريعتَه ؛ وهي ـ مع هذا ـ موسَّعٌ عليها في الرزق ، مُمَكَّنٌ لها في الأرض . . ولكن هذا هو الابتلاءُ ، ثم هو بَعْدَ ذلك رخاءٌ ظاهريٌّ ، تأكلُه آفاتُ الاختلالِ الاجتماعيِّ والانحدارِ الأخلاقي ، فقد صرَّح مسؤولٌ كبيرٌ في العالَمِ الغربيِّ أنَّ هناك أخطاراً كبيرةً تهدِّدُ المجتمعَ الغربيَّ ؛ منها تفكُّكُ الأسرةِ ، وشيوعُ الجريمةِ ، وانتشارُ المخدراتِ ، وسقوطُ القيمِ ، ثم انتشارُ مرضِ الإيدز ، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف : ٩٤ـ٩٥] .

إنَّ السياقَ القرآنيَّ هنا لا يروي حادثةً ، إنما يكشف عن سُنَّة ، ولا يعرض سيرةَ قومٍ ، إنما يعلن عن خطواتِ قدر . . ومِن ثَمَّ يكشف أنّ هناك سنَّةً تكوينيةً تجري عليها الأمورُ ؛ وتتمُ وَفقها الأحداثُ ؛ ويتحرّك بها تاريخُ الإنسان في هذه الأرض ، وأنّ الرسالةَ ذاتَها ـ على عِظَمِ قدْرها ـ هي وسيلةٌ مِن وسائلِ تحقيقِ الناموسِ الأكبرِ ، وأنّ الأمورَ لا تمضي جزافاً ؛ وأنّ الإنسانَ لا يقومُ وحدَه في هذه الأرضِ ـ كما يزعمُ الجاهلون

الشاردون ـ وأنّ كلَّ ما يقعُ في هذا الكونِ إنما يقعُ عن تدبيرٍ ، ويصدُرُ عن حِكمةٍ ، ويتّجه إلى غايةٍ ، وأنّ هنالك في النهايةِ سُنَّةً ماضيةً وَفقَ إرادةِ اللهِ الطليقةِ ؛ التي وضعتِ السنَّةَ ، وارتَضَتِ الناموسَ .

ومِن ملامحِ هذه السنّةِ الكونيةِ أنَّ هدايةَ اللهِ تسيرُ مع هذا الإنسانِ الذي خُلِقَ لجنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ في أربعِ مراحلَ :

١ ـ الدعوة البيانية

وهي دعوةُ الأنبياءِ والمرسلين ، والدعاةِ الصادقين ، قال عزَّ مِنْ قائل :

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٢١] ، وقال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، وقال :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص : ٥٠] .

فإنْ لم يستجبِ الناسُ لدعوةِ ربِّهم لهُم إلى ما يحييهم الحياةَ التي خُلِقوا من أجْلها ، والحياةَ التي تليقُ بإنسانيتِهم ، والحياةَ التي تَتَّصلُ فيها نِعَمُ الدنيا بِنِعَمِ الآخرة ، إنْ لم يستجيبوا طُبِّقتْ عليهم الخطّةُ الثانية وهي :

٢ ـ التأديب التربوي

فليس مِن العبثِ ـ وتعالى اللهُ عن ذلك علوّا كبيراً ـ أنْ يأخذَ اللهُ عبادَه بالشدّةِ في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم ، إنّما يأخذُ اللهُ المكذِّبين

بالحقِّ ، يأخذهم بالبأساء والضراء ، لأنّ مِن طبيعة الابتلاء بالشدة أنّه يوقِظ الفطرةَ التي ما يزال فيها خيرٌ يُرْجَى ، وأنْ يرقّقَ القلوبَ التي طال عليها الأمدُ إذا كانت فيها بقية من خير ؛ وأنْ يتَّجِهَ بالبَشَرِ الضِّعَافِ إلى خالقهم القهّارِ ؛ يتضرّعون إليه ؛ ويطلبون رحمتَه وعفوَه ؛ ويعلنون بهذا التضرّع عن عبوديتهم له ، وإنَّ العبوديةَ لله غايةُ الوجود الإنساني ، وما للهِ سبحانه مِن حاجةٍ إلى تضرّعِ العباد ، وإعلانِ افتقارِهم له ، ولكنّ تضرعَ العباد ، وإعلانَ عبوديتِهم له إنما يُصْلِحُهُمْ هم ؛ ويصلحُ حياتَهم ، ومعاشَهم كذلك ، قال سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] .

فمتى أعلنَ الناسُ عبوديتَهم لله تحرَّروا مِنَ العبودية لسواه ، وتحرَّروا من العبودية للشيطان الذي يريد أنْ يُغويَهم ، وتحرّروا مِن شهواتِهم وأهوائِهم ، وتحرّروا مِنَ العبودية للعبيدِ مِنْ أمثالِهم ؛ واستحَيوْا أنْ يتَّبعوا خطواتِ الشيطان ؛ واستحَيوا أنْ يُغضِبوا اللهَ بعملٍ أو نيةٍ ، لذلك اقتضتْ مشيئةُ اللهِ أنْ يأخذَ أهلَ كلِّ قريةٍ شَرَدَتْ عنه بالبأساء في أنفسهم وذواتِهم ، وبالضراءِ في أبدانِهم وأموالِهم ، إحياءً لقلوبهم بالألم .

والألمُ خيرُ مهذِّبٍ ، وخيرُ مفجِّرٍ لينابيعِ الخيرِ المستكِنَةِ ، وخيرُ مُرهفٍ للحساسية في الضمائرِ الحيّةِ ، وخيرُ موجِّه إلى ظلالِ الرحمةِ التي تلُوحُ للضعافِ المكروبين ، قال تعالى :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ [الأعراف : ٩٥] .

ولكن . . . حينما لا تُحْدِثُ الشدائدُ في الناس توبةً وإنابةً ؛ بسببِ شدّةِ غفلتِهم ، وانغماسِهم في المُتَعِ الرَّخيصةِ ، تصبحُ مصيبتُهم الكبرَى في أنفسهم ، وقد قيل : من لم تُحْدِثِ المصيبةُ في نفْسِ الإنسانِ موعظةً ، فمصيبتُه في نفْسِه أكبرُ ، عندئذ يُخضِعُهم اللهُ للخطّةِ الثالثةِ .

٣ ـ الرخاء الاستدراجيُّ

فإذا الرخاءُ مكانَ الشدّةِ ، واليسرُ مكانَ العسرِ ، والنعمةُ مكان الشظفِ[(١)] ، والعافيةُ مكان الضرِّ ، والذريّةُ مكانَ العَقْرِ ، والكثرةُ مكانَ القِلّةِ ، والأمنُ مكانَ الخوفِ ، وإذا هو متاعٌ ورخاءٌ ، وهناءةٌ ونعماءُ ، وكثرةٌ وامتلاء . . وإنما هو في الحقيقة اختبارٌ وابتلاءٌ . .

والابتلاءُ بالشدّةِ ينتفعُ به الكثيرون ، فالشدَّة تستثيرُ العناصرَ المقاوِمةَ للمعاصي والآثام ، وقد تذكِّر صاحبَها بالله ـ إنْ كانَ فيه بقيةٌ مِن خيرٍ ـ فيتّجهُ إليه ، ويتضرّعُ بين يديهِ ، ويجدُ في ظلِّه طمأنينةً ، وفي رِحابه فُسحةً ، وفي فَرَجِهِ أملاً ، وفي وعدِه بشرَى ، أمّا الابتلاءُ بالرخاءِ فالذين ينتفعون منه قليلون ، لأنّ الرخاءَ يُنسِي ، والمتاعَ يُلهِي ، والثراءَ يُطغِي ، فلا ينتفعُ بِه إلا القليلُ مِن عبادِ الله ، قال عزوجل :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف : ٩٥] ، أي : حتّى كثُروا وانتشروا ، واستسهلوا العيشَ ، واستيسروا الحياةَ ، ولم يجِدوا في أنفسهم حرجاً مِن شيءٍ يعملونه ، ولا تخوُّفاً مِن أمرٍ يصنعونه ، وكلمة ﴿عَفَوا۟﴾ إلى جانبِ دَلالتِها على

---

(١) الشَّظَفُ يُبْسُ العيشِ وشدَّتُه ، (لسان العرب مادة شظف) .

الكثرةِ فهي تُوحِي بحالةٍ نفسيةٍ خاصةٍ ؛ حالةِ اللامبالاةِ ، حالةِ الاستخفافِ والاستهتارِ ، حالةِ استسهالِ كلِّ أمرٍ ، حالةِ اتّباعِ كلِّ خاطرٍ ، وهي حالةٌ مشاهَدَةٌ في أهلِ الرخاءِ واليسارِ والنعمةِ ، حينَ يطولُ بهم العَهدُ ـ أفراداً وأمماً ـ كأنّ حساسيةَ نفوسِهم قد ترهلت[1] فلم تعد تحفَلُ بشيء ، أو تحسب حساباً لشيء ، فهم ينفقون في يسر ، ويتلذذون في يسر ، ويلهون في يسر ، ويبطشون كذلك في يسر ! ويقترفون كلَّ كبيرةٍ تقشعرُّ لها الأبدانُ ، ويرتعشُ لها الوجدانُ ، في يُسْرٍ واطمئنانٍ ! وهم لا يتَّقون غضبَ الواحدِ الديَّانِ ، ولا لومَ الناسِ ، ولا الخِلاَّن ، فكلُّ شيءٍ يصدرُ منهم عفواً بلا حرجٍ ولا مبالاةٍ ، وهم لا يفطَنون لسُنّة الله في الكون ، ولا يتدبّرون اختباراتِه وابتلاءاتِه للناسِ ، ثم يحسبونَها تمضِي هكذا جزافاً ، بلا سببٍ معلومٍ ، ولا قصدٍ مرسومٍ ، ﴿ وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ .

وقد أخذنا حظَّنا مِنَ الضراءِ ، وجاء حظُّنا مِنَ السراء ! وها هي ذي ماضيةٌ بلا عاقبةٍ لأواء[2] ، فهي تمضي هكذا كخبطة عشواء ، عندئذ ، وفي ساعةٍ من الغفلة السادرة تجيءُ العاقبةُ وَفق السُّنةِ الجاريةِ :

﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف : ٩٥] ، جزاءً بما نسُوا ، واغترُّوا ، وبَعُدوا عن الله ؛ وأطلقُوا لشهواتِهم العَنَانَ ، فما عادُوا

---

(١) [الرَّهَل الانتفاخ حيث كان ، وقيل : هو شِبه ورم ليس مِن داءٍ ، ولكنه رخاوة إلى السِّمَن ، وهو إلى الضّعف ، وقد رهِل اللحمُ رهَلاً فهو رَهِلٌ : اضطرب واسترخى] ، (لسان العرب ، مادة رهل) ، و(مختار الصحاح ، مادة رهل) .

(٢) [اللأواء المشقة والشدة] ، (لسان العرب ، مادة لأي) .

يتحرَّجون مِن فِعلٍ ، وما عادتِ التقوى تخطرُ لهم ببالٍ ! هؤلاء يبنُونَ مجدَهم ومجدَ شعوبِهم على أنقاضِ بقيّةِ الشعوبِ ، ويبنُون غناهم على إفقارِها ، ويبنون قوّتَهم على إضعافِها ، ويبنون سعادتهم على شقائِها .

إنَّ تحكُّمَ القطبِ الواحدِ ، وازدواجيةَ المعاييرِ ، وسيطرةَ الاحتكاراتِ الكبرى حَوَّلَ العالَمَ إلى غابةٍ تتحكَّم فيها قواعدُ القوةِ ، وتغيبُ عنها ضوابطُ المبادئِ والقيمِ ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

وحينما لا ينتفعُ الإنسانُ بالرخاءِ الاستدراجيِّ ، وهو آخِرُ مرحلةٍ يُنْتَظَر أنْ ينتفعَ بها الإنسانُ ، حيث إنّ اللهَ بيَّن له عن طريقِ الأنبياءِ والمرسلين والدُّعاةِ الصادقينَ فلمْ يستجبْ ، وساق له مِنَ الشدائد فلم يتُبْ ، وأغرقَه بالنِّعَمِ فلم يشكرْ ، عندئذٍ يُحسَمُ أمرُه ، فيُقصَمُ ظهرُه ، وهي المرحلةُ الرابعةُ .

٤ ـ مرحلة القصم

وهذه المرحلةُ توضِّحُها الآيةُ القرآنيّةُ الكريمةُ :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وللموضوعِ طرفٌ آخرُ ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، ذلك هو الطرفُ الآخرُ لسُنَّةِ اللهِ الجاريةِ في خلْقه ، فلو أنّ أهلَ القرى آمنوا بَدَلَ التكذيبِ ، واتَّقَوْا بَدَلَ العصيانِ ؛ لَفَتَحَ اللهُ عليهم

﴿ بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ، مفتوحةً بلا حسابٍ ، تأتيهم هذه البركاتُ مِن فوقِهم ، ومِن تحتِ أرجلِهم ، والتعبيرُ القرآنيُّ بعمومِه وشمولِه يُلقِي فيضاً مِنَ العطاءِ الغامرِ ، الذي لا يعهَدُه البشرُ مِنَ الأرزاقِ والأقواتِ .

إنَّ العقيدةَ الإيمانيةَ في الله وطاعته ليستْ مسألةً منعزلةً عَنِ واقعِ الحياةِ ، وعن تاريخِ الإنسانِ ، بل إنَّ الإيمانَ بالله ، وطاعتَه ليؤهِّلانِ لفيضٍ مِن بركاتِ السماء والأرض ، وعداً مِنَ الله ، ومَنْ أوفَى بعهدِه مِنَ الله ؟ .

ونحن ـ المؤمنين بالله ـ نَتلقَّى هذا الوعدَ بقلبٍ مؤمنٍ ، فنصدِّقه ابتداءً ، لا نسألُ عن عِلَلِه وأسبابِه ؛ ولا نتردَّدُ لحظةً في توقُّعِ مدلولِه . . نحن نؤمنُ بالله ـ بالغيب ـ ونصدِّقُ بوعدِه بمقتضَى هذا الإيمانِ . . لكنّ المذاهبَ الوضعيةَ تغفلُ عنه ، بل وتغفلُه كلَّ الإغفال ، بل وتنكِرُه أشدَّ الإنكار !

إنّ الإيمانَ بالله دليلٌ على سلامةٍ في الفطرةِ ؛ وسلامةٍ في أجهزةِ الاستقبالِ ؛ وصوابٍ في الإدراكِ الإنسانيِّ ، وهذه كلُّها مِنْ مؤهِّلاتِ النجاحِ في الحياةِ الواقعيّةِ .

وإنَّ الإيمانَ بالله قوةٌ دافعةٌ دافقةٌ ، تجمعُ جوانبَ الكيانِ البشريِّ كلَّها ، وتتّجه بها إلى وِجهةٍ واحدةٍ ، لتحقيقِ مشيئةِ الله للإنسان في خلافةِ الأرض وعمارتِها ، وفي دفعِ الفسادِ والفتنةِ عنها ، وفي ترقيةِ الحياةِ ونمائِها . . وهذه كذلك مِن مؤهِّلاتِ النجاحِ في الحياةِ الواقعيةِ .

والإيمانُ باللهِ تحرُّرٌ مِنَ العبودية للهوَى ، ومن العبوديةِ للعبيدِ ،

وما مِن شك أنّ الإنسانَ المتحرِّرَ بالعبودية لله أَقْدَرُ على الخلافةِ في الأرضِ خلافةً راشدةً صاعدةً مِن عبيدِ للهوى ، وعبيدِ الأشخاص .

وتقوى الله يقظةٌ واعيةٌ تصونُ مِن الاندفاعِ والتَّهَوُّرِ ، والشطَطِ والغرورِ ، وتوجِّه الجهدَ البشريَّ في حَذَرٍ ، فلا يعتدي ، ولا يتهوَّر ، ولا يتجاوز حدودَ النشاطِ الصالحِ .

وحين تسيرُ الحياةُ متناسقةً بين الدوافعِ والكوابحِ ، عاملةً في الأرض ، متطلِّعةً إلى السماء ، متحرِّرةً مِن سلطانِ الهوى ، وهيمنةِ الأقوياءِ ، عابدةً خاشعةً لله . . تسيرُ سيرةً صالحةً منتِجةً ، فلا جَرَمَ أنّه تحفُّها البركةُ ، ويعمُّها الخيرُ ، ويُظِلُّها الفلاحُ .

والبركاتُ التي يَعِدُ اللهُ بها الذين يؤمنون ويتّقون في توكيدٍ ويقينٍ ألوانٌ شتّى ، لا يفصِّلُها النصُّ القرآنيُّ ، ولا يحدِّدُها ، وأمّا إيحاءُ النصِّ القرآنيّ فيصوِّر الفيضَ الهابطَ مِن كلِّ مكانٍ ، النابعَ من كل مكانٍ ، بلا تحديدٍ ولا تفصيلٍ ولا بيانٍ ، فهي البركاتُ بكلِّ أنواعِها وألوانِها ، وبكلِّ صورِها وأشكالِها ، ما يعهدُه الناسُ ، وما يتخيّلونَه ، وما لم يتهيّأ لهم في واقعٍ ولا خيالٍ ، فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اسْتَقِيمُوا ، وَلَنْ تُحْصُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلاَةُ ، وَلاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ »(١) .

والذين يتصوّرون الإيمانَ بالله وتقواهُ مسألةً تعبديةً بحتةً ، لا صلةَ لها بواقعِ الناسِ في الأرضِ ، لا يعرفون الإيمانَ ، ولا يعرفون الحياةَ !

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٧) ، وأحمد (٢٢٤٣٢) ، والدارمي (٦٥٥) .

وما أجدرَهم أنْ ينظرُوا نظرةً أعمقَ ، وأنْ يستنبِطوا من كلامِ اللهِ استنباطاً أَلْيَقَ .

ولابدّ ونحن في صددِ هذا الموضوعِ مِنَ الموازنةِ بين : ﴿ بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِه سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، و : ﴿ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ في قولِه تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

* * *

أسباب ازدياد الرزق

إنّ الرزقَ في : ﴿ بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ متاع طيبٌ ، ورخاءٌ ، وهو رغَدٌ في الدنيا ، وزادٌ إلى الآخرة ، والرزقُ في : ﴿ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ مَثارُ قلقٍ وخوفٍ ، ومَثارُ حَسدٍ وبُغضٍ ، وقد يكون معه الحرمانُ ، ببخلٍ أو مرضٍ ، وقد يكون معه التَّلفُ بتفريط أو إهمال .

وإنّ الذريةَ في : ﴿ بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هي زينةُ الحياةِ الدنيا ، ومصدرُ فرحٍ واستمتاع ، ومضاعفةٌ للأجر في الآخرة ، بالذرية الصالحة ، والذريةُ في ﴿ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ بلاءٌ ، ونكدٌ ، وعنتٌ ، وشقاءٌ ، وسهرٌ بالليل ، وتعبٌ بالنهار .

وإنّ الصحةَ والعافيةَ في : ﴿ بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هي نعمةٌ

وحياةٌ طيبةٌ ، والصحةُ والعافيةُ في ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بلاءٌ يسلطه اللهُ على الصحيح المعافى ، فينفق الصحة والعافية فيما يحطِّم الجسمَ ، ويفسِد الروحَ ، ويدَّخر السوء إلى يوم الحساب .

وإنّ الجاهَ والقوةَ في : ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هي أداةُ إصلاحٍ ، ومصدرُ أمنٍ ، ووسيلةٌ لادّخار الطيِّبِ الصالحِ من العملِ والأثرِ ، والجاهُ والقوةُ في ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مصدرًا قلقٍ على فوْتِه ، ومصدرا طغيانٍ وبغْيٍ ، ومصدرا حِقدٍ وكراهيةٍ ، لا يقرُّ لصاحبِها قرارٌ ، ويدّخِر بها للآخرة رصيداً ضخْماً إلى النّار .

فالبركةُ قد تكونُ مع القليلِ إذا أحسنَ الانتفاع به ، وكان معه الصلاحُ والأمنُ والرضى والارتياح . . وكم مِن أمّة غنية قوية ، ولكنها تعيشُ في شقاوةٍ ، مهدَّدةً في أمْنِها ، مقطّعةَ الأواصرِ بينَها ، يسودُ الناسَ فيها القلقُ ، وينتظرُها الانحلالُ ، فهي قوةٌ بلا أمنٍ ، وهو متاعٌ بلا رضى ، وهي وفرةٌ بلا صلاحٍ ، وهو حاضرٌ زاهٍ يترقَّبُه مستقبلٌ نكِدٌ ، وهو الابتلاءُ الذي يعقُبه النكال ، إنَّ البركاتِ الحاصلةَ مع الإيمانِ والتقوى بركاتٌ في الأشياءِ ، وبركاتٌ في النفوسِ ، وبركاتٌ في المشاعرِ .

والآن هل مِن وسيلةٍ ذكَرها القرآنُ الكريم ، وبيَّنَتْها السنةُ المطهرةُ تضاف إلى الاستغفارِ ، والإيمانِ والتقوى ، تزيدُ[١] في الرزق ، وكلُّ واحدٍ مِنَ الخَلْقِ حريصٌ على زيادةِ رزقِه ، فهل هناك علاقة بين الرزق

---

(١) الضمير في « تزيد » يعود على قوله « وسيلة » ، والمعنى : هل من وسيلة تزيد في الرزق .

والصلاة ؟ انظروا في قوله تعالى :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

[طه : ١٣٢]

هناك علاقةٌ بين الرزقِ والشكرِ ، انظروا في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

هناك علاقة بين الرزقِ وصلةِ الرحمِ ، انظروا في هذا الحديث الشريف ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ »[(١)] .

فهل من علاقة بين الرزق والصدقة ؟ في الأثر : « اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ »[(٢)] .

هناك علاقة بين الرزق والأمانة ، انظروا فيما ورد عن رسول الله ﷺ : « الأَمَانَةُ غِنًى »[(٣)] ، بالمعنى المادي ، والأمينُ ينالُ أثمنَ شيءٍ وهو ثقةُ الناسِ .

هناك علاقةٌ بين الرزق والإتقان ، انظروا في هذا الحديث الشريف :

(١) متفق عليه .

(٢) الكامل في ضعفاء الرجال (٢/ ٤١٢) ، وفيض القدير للمناوي (١/ ٥٠١) عن جبير بن مطعم .

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٤) .

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ »[١] ، فمَنْ أتقنَ عملَه أحبَّه اللهُ ، وإذا أحبَّ اللهُ عبداً ألقى محبَّتَه في قلوبِ الخلْقِ ، ومَن أحبَّه اللهُ ، وأحبَّه الخلقُ يَسَّره لليسرى .

* * *

صلاة الاستسقاء

وقد تنقطعُ أسبابُ الرزقِ بانقطاعِ الأمطارِ ، فتغُورُ الينابيعُ ، وتَجِفُّ الأنهارُ ، ويَيْبَسُ الزرعُ ، ويموتُ الضّرعُ ، ويُهَدَّدُ الإنسانُ بافتقادِ كأسِ الماءِ ، ولُقمةِ العيش ، ويجد نفسَه مضطراً إلى أنْ يخرجَ مِن أرضِه الجدباءِ مشرداً ، وأنْ يغادرَ بيتَه الخاويَ هائماً على وجهه ، وقد شرعَ لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الاستسقاء طَلَباً لِلرَّحْمَةِ ، وَالإِغَاثَةِ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ ، الَّذِي هُوَ حَيَاةُ كُلِّ شَيْءٍ ، مِمَّنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ ، وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ اللهُ جَلَّ جَلاَلُهُ .

ثَبَتَتْ مشروعيةُ صلاةِ الاستسقاء بِالنَّصِّ وَالإِجْمَاعِ ، أَمَّا النَّصُّ فَقَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

كَمَا اسْتُدِلَّ لَهَا بِعَمَلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَخُلَفَائِهِ ، وَإجماعِ الْمُسْلِمِينَ

---

(١) حديث صحيح الجامع الصغير (١/ ١٧٧) ، ومسند أبي يعلى الموصلي (٧/ ٣٤٩) عن عائشة .

مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَدْ وَرَدَتْ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فِي اسْتِسْقَائِهِ ﷺ ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ ، فَقَامَ النَّاسُ فَصَاحُوا ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ قَحَطَ الْمَطَرُ ، وَاحْمَرَّتِ الشَّجَرُ ، وَهَلَكَتِ الْبَهَائِمُ ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَسْقِيَنَا ، فَقَالَ : (اللَّهُمَّ اسْقِنَا) ، مَرَّتَيْنِ ، وَايْمُ اللهِ ، مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً مِنْ سَحَابٍ ، فَنَشَأَتْ سَحَابَةٌ ، وَأَمْطَرَتْ ، وَنَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ ، فَصَلَّى ، فَلَمَّا انْصَرَفَ لَمْ تَزَلْ تُمْطِرُ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ صَاحُوا إِلَيْهِ : تَهَدَّمَتِ الْبُيُوتُ ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ ، فَادْعُ اللهَ يَحْبِسُهَا عَنَّا ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ : (اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا) ، فَكَشَطَتِ الْمَدِينَةُ ، فَجَعَلَتْ تَمْطُرُ حَوْلَهَا ، وَلاَ تَمْطُرُ بِالْمَدِينَةِ قَطْرَةً ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَإِنَّهَا لَفِي مِثْلِ الإِكْلِيلِ »(١) .

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : « شَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُحُوطَ الْمَطَرِ ، فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ فَوُضِعَ لَهُ فِي الْمُصَلَّى ، وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْماً يَخْرُجُونَ فِيهِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ ، مُتَوَاضِعاً ، مُتَبَذِّلاً ، مُتَخَشِّعاً ، مُتَرَسِّلاً ، مُتَضَرِّعاً فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَكَبَّرَ وَحَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ قَالَ : إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ ، وَاسْتِئْخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ ، وَقَدْ أَمَرَكُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَدْعُوهُ ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ ، أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ ، أَنْزِلْ

---

(١) البخاري (٩٧٥) ، ومسلم قريباً منه (٨٩٧) .

عَلَيْنَا الْغَيْثَ من السَّمَاءِ ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْت لَنَا قُوَّةً وَبَلاَغاً إِلَى حِينٍ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَا بَيَاضُ إِبِطَيْهِ ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ ، وَقَلَبَ أَوْ حَوَّلَ رِدَاءَهُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، وَنَزَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، فَأَنْشَأَ اللهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ ، وَبَرَقَتْ ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ ، فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ(١) ضَحِكَ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ، وَأَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ »(٢) .

وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟) قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي ، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ »(٣) .

إنّ صلاةَ الاستسقاءِ هي رجاءُ الرحمةِ مِن السماءِ ، ونداءُ صدقٍ تتواصى به النفوسُ المؤمنة خيراً ، ورحمةٌ للبلاد والعباد ، وينبغي أنْ تسبِقَها التوبةُ الصادقةُ مِنَ المعاصي والذنوبِ ، وردُّ المظالمِ والحقوقِ إلى أصحابها ، وصيامُ ثلاثةِ أيامٍ قَبْلَ اليومِ الذي تؤدَّى فيه صلاةُ الاستسقاءِ .

---

(١) [الكنّ ما يرُدُّ الحَرَّ والبَرْدَ مِن الأبنية والمساكن] ، (النهاية في غريب الحديث (٤/٢٠٦) ، (ولسان العرب ، مادة كنن) .

(٢) أبو داود (١١٧٣) .

(٣) البخاري (٨١٠) ، ومسلم (٧١) .

والجديرُ بالذكرِ أنّ اللهَ جلّ في علاه يستجيبُ لعبادِه المؤمنين الذين استجابوا له ، فأطاعوه ، وأخلَصوا في طاعتهم استحقاقاً ، وقد يستجيبُ لعبادِه المضطرِّين الذين كادَ يُهلكُهم الجفافُ ، وقصّروا في طاعتهم وإخلاصهم ، قد يستجيبُ لهؤلاء تفضُّلاً وتشجيعاً ، وقد يستجيبُ رحمةً بالضعاف الطائعينَ ، الذين أشارَ إليهم رسولُ الله ﷺ بقوله في الحديث : « لَوْلاَ شَبَابٌ خُشَّعٌ ، وَشُيُوخٌ رُكَّعٌ ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ ، لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبًّا »[1] .

قال ابنُ عباسٍ : « إنَّ للحسنةِ نوراً في القلبِ ، وضياءً في الوجهِ ، وقوةً في البدَنِ ، وزيادةً في الرزقِ ، ومحبّةً في قلوبِ الخلْقِ ، وإنّ للسيئةِ سواداً في الوجهِ ، وظلمةً في القلبِ ، ووَهَناً في البدَنِ ، ونقصاً في الرزقِ ، وبُغضاً في قلوبِ الخَلْقِ »[2] .

* * *

الغدة الصعترية (التيموس)

يُعَدُّ جهازُ المناعةِ المكتسبُ مِن أخطرِ الأجهزةِ في الجسمِ البشريِّ ، وهو جيشٌ دفاعيٌّ عالي المستوى والجاهزيةِ ، فيه فِرَقُ الاستطلاعِ ، وفِرَقُ تصنيعِ السلاحِ ، وفِرَقُ القتالِ ، وفِرَقُ الخدماتِ ، وفِرْقَةُ المغاويرِ ، والحديثُ هنا عن فِرَقِ القتالِ في كرياتِ الدمِ .

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٣٤) ، وأبو يعلى في مسنده (١١/ ٢٨٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٤٥) عن أبي هريرة .

(٢) ذَكَرَه ابنُ القيم في الجواب الشافي (ص ٧٩) .

يرسَلُ فريقٌ مِن كرياتِ الدمِ البيضاءِ التي صُنِعَتْ وتشكلّتْ في نقِي العظامِ ، والتي فُرِزَتْ لِمَهَامّ قتاليةٍ ، تُرسَل إلى مدرسةٍ حربيةٍ اسمُها الغدةُ الصعترية (التيموس) في دورةٍ تثقيفيةٍ تدريبيةٍ ، وبعدَ اجتيازِ الامتحانِ تتخرّج بلقبِ (الخلية التائية المثقفة) .

وفي هذه المدرسةِ الحربيةِ تَدرسُ هذه الكرياتُ البيضاءُ التي فُرِزَتْ للقتالِ مادتَيْنِ أساسيتين : التعريفَ بالذات والصديق ، والتعريفَ بالعدوّ الممرِض .

ففي المقررِ الأولِ يُعْرَض على هذه الخلايا مئاتُ الألوفِ من البروتينات التي تدخلُ في بناءِ الجسمِ البشري ، ثم ترمز هذه العناصر الصديقة ، وتدرِّب هذه الخلايا على ألاَّ تهاجمَها ، لأنّها إنْ هاجمتْها فمعنى ذلك أنَّ الجسمَ يدمِّر نفسَه ، ويُتلِف بعضَه .

وفي المقرَّرِ الثاني يُعرَض على هذه الخلايا ما عرفه النوعُ البشريُّ عبْرَ الأجيالِ على أنّه عنصرٌ ممرضٌ مِن خلالِ مناعاتِ الأمِّ التي تصلُ إلى المولودِ مِن خلالِ الحليبِ ، ومِن خلالِ التجربةِ الحيّةِ ، إذ إنَّ الطفلَ في السنواتِ الأولى يميلُ بفطرتِه إلى التقاطِ الأشياءِ ، ووضعِها في فَمِهِ لتعرّفَ خلاياه المقاتلةُ العناصرَ المعادية ، أو أنّ العدوَى بالأمراضِ تعطيهِ مزيداً مِنَ المعلوماتِ عن أعدائِه ، ومن خلالِ هذه المحاضراتِ تعرّفُ هذه الكرياتُ البيضاءُ المقاتلةُ العناصر المعادية التي عليها أنْ تهاجمَها ، أو تذيعَ نبأَ وجودِها ، أو تساهمَ في إلقاءِ القبضِ عليها .

ومن خلالِ المَجَاهِرِ الإلكترونية تبدو الغدّةُ الصعتريةُ على شكلِ

مـدرَّجـات رومـانيـةٍ ، تَصْطَـفُّ الكـريـاتُ البيضـاءُ عليهـا لتتلقَّـى هـذه المحاضراتِ القيِّمة ، إذ لابدّ في أيّة جامعةٍ أو معهدٍ أو مدرسةٍ مِن امتحانٍ ، وتمرُّ هذه الكرياتُ فرادى في بوّاباتٍ امتحانيةٍ ، وتُمتَحَنُ واحدةً وَاحدةً في المقرَّرَيْن السابقَين .

امتحانُ المادة الأولى : يُعرَضُ على الكريةِ البيضاءِ الممتحَنةِ عنصرٌ صديقٌ ، فإنْ هاجمتْه أخفَقَتْ في الامتحانِ ، ومُنِعَتْ مِن مغادرةِ الغدّةِ الصعتريةِ ، وقُتِلَتْ ، لأنها إنْ خرجتْ إلى الدمِ تهاجمُ الجسمَ الذي شكّلَها .

امتحانُ المادة الثانية : يُعرَض على الكرَيّةِ البيضاءِ الممتحنَةِ عنصرٌ عدوٌّ ممرِض ، فإنْ أخفقتْ في تمييزِه والردِّ عليه رَسَبَتْ في الامتحان ، ومُنِعَتْ مِن مغادرةِ الكُلِّيَّة وقُتِلَتْ ، لأنّها إنْ خرجتْ إلى الدمِ غَفَلَتْ عن العدوِّ ، ومكَّنتْه من مهاجمةِ الجسمِ .

يستمرُ عملُ هذه الكُلِّيَةِ الحربية (الغدة الصعترية) مِن بَدْءِ الولادةِ وحتى السنةِ الثالثةِ ، وبَعدَها تقومُ بتوريثِ علمِ مراقبةِ وضبطِ عملِ الكرياتِ البيضاءِ إلى الكرياتِ البيضاءِ الناجحةِ في الامتحانِ ، والتي سُمِّيَتْ بعد التخرُّج (الخلايَا التائيّةَ المثقَّفةَ) ، لتقومَ بدورها في نقلِ هذا العلمِ إلى أجيالِ الكريّاتِ البيضاءِ اللاّحقةِ .

وفي السبعيناتِ مِن العُمُرِ يضعفُ تثقيفُ الكرياتِ البيضاءِ المقاتلةِ ، فتبدأُ بمهاجمةِ العناصرِ الصَّدِيقةِ ، وبعضِ أجهزةِ الجسمِ وأعضائِه ، فنرى في هذا العمرِ أمراضاً شائعةً ، كالتهابِ المفاصلِ الرثوي ، وبعضِ الاعتلالات الكلوية ، وأمراض المصليات ، وأمراض أخرى ما كان

سببها إلا ضعفَ ثقافةِ الجهازِ المناعيِّ الذي ينتجُ عنه زوالُ الضبطِ في عمل الخلايا المقاتلة (وهو خَرف الجهازِ المناعيِّ) ، فتصبحُ الخلايا المناعيةُ المقاتلةُ تهاجمُ الجسمَ في الذي شكّلها ، وثقَّفَها للدفاعِ عنه ، وتكونُ حالةُ الجسمِ في ما يشبهُ الحربَ الأهليةَ .

* * *